

فاعلية الشخصية السردية في كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي مقاربة سيميائية

بويش منصور*

ملخص:

تحاول هذه القراءة تحليل الشخصيات والعوامل في قصص الحب التي أوردها ابن حزم الأندلسي (384 – 456 هـ) في كتابه (طوق الحمامة في الألفة والألاف)، على أن الشخصيات تقوم بالأفعال التي تصنع الحدث السردى وتتفاعل معه، حيث سنحاول مقاربتها وفق النظرية السيميائية التي أرسى قواعدها ج. أ. غريماس **Greimas Algirdas Julien**، محاولين في هذا الصدد إبراز المفارقات بين الشخصية والعامل والممثل.

الكلمات المفتاحية:

الشخصية، العوامل، السرد، القصة، النثر، التراث.

1) مفهوم الشخصية وأنواعها

للشخصية **Personnage** أهمية كبيرة في القصة، فقد شغلت مكانة مرموقة في الدراسات الحديثة، خصوصاً تلك الأعمال التي تهتم بتحليل الخطاب السردى، حيث رأى الناقد الفرنسى رولان بارت أن أهميتها تكمن في أننا لا نستطيع تصوّر أي قصة في العالم دون شخصيات.¹ وهذا ما دفع ناقداً آخر وهو ميشال آدم **Jean Michel Adam** إلى التركيز على إدراجها في الصدارة باعتبارها المكوّن الرئيس الذي يحقق الانسجام بين باقي مكونات السرد، وذلك ما يفهم من قوله: "إنّ الشخصيات تمثل المبدأ الأول في ائتلاف عناصر القصة وانسجامها".² فخلافاً للمناهج التقليدية (السياقية) ذات الأسس الاجتماعية والنفسية، والتي وقعت في النظرة الأحادية للشخصية عندما اهتمت بمضمونها، نجد أنّ المناهج النصانية (النسقية)³ انصرفت بطريقة جذرية للاهتمام بهوية الشخصية من خلال وظيفتها أي شكلها، ويمكن الحديث في هذا المجال عن نظريات السرد التي تتجاذب دراسة الشخصية بوصفها جزءاً لا يتجزأ من العملية السردية.⁴ وتزداد أهميتها كلما انتقلنا إلى البعد التجسدي الذي يتحقق أكثر في المسرح والسينما، إذ لا يمكن تصوّر أي عمل في هذين المجالين دون شخصيات. إنّ الشخصية هي كل مشارك في أحداث القصة سلماً أو إيجاباً، أمّا من لا يشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشخصيات بل يكون جزءاً من الوصف.⁵ كما أنّ الشخصية عنصر مصنوع كباقي عناصر القصة، فهي تتكون من مجموع الكلام الذي يصفها ويصوّر أفعالها وينقل أفكارها وأقوالها.⁶ وإن كانت الشخصيات في السرد الخيالي كائنات ورقية ومخلوقات نصية، لا توجد إلا في عالم السرد المجاني لعالم الواقع والمربط معه بعلاقة ما، قد تكون علاقة العالم الفني الموازي للعالم الحقيقي الواقعي، لكنها على أي حال ليست علاقة العكس المباشر الذي تجسده المرأة. فإنّ الشخصيات في السرد القديم ذي الصلة الوثقى بالواقع لاجتماعي والتاريخي مثلما هو الحال في طوق الحمامة، ليست كذلك – أي ليست شخصيات ورقية وكائنات نصية – إنها تكاد تمثل شخصيات تاريخية في الغالب، لها وجود واقعي وإسهام في صنع العصر الأندلسي.⁷ وعلى العموم يمكن تصنيف الشخصيات في طوق الحمامة إلى:

*- أ. بويش منصور، كلية الأدب والفنون، جامعة وهران 1.

أ) شخصيات تاريخية:

إنّ توظيف الشخصيات التاريخية في عمل سردي ما، يعطي المغزى المعبر عنه بعدا خاصا يساعد على الإحاطة به، فهي شخصيات مرجعية تحيل على معنى تام وقار، تتضمنه ثقافة ما. يؤدي هذا التوظيف مهمته ويحقق غرضه حسب مشاركة القراء في هذه الثقافة، وهذه المشاركة هي المسؤولية عن وضوح الشخصيات التاريخية في النص وأدائها للمعنى المقصود، وبعبارة أخرى فإنّ مقروئية هذه الشخصية كغيرها من الشخصيات المرجعية الأخرى (الشخصية السياسية والاجتماعية...) مرتبطة مباشرة بدرجة مشاركة القارئ في هذه الثقافة.⁸ كما أن الشخصية التاريخية تعبر عن معنى جاهر وثابت تفرضه ثقافة ما فالقارئ يلاحظ أنّ النص يتضمن بعض الشخصيات التاريخية، وهذا التضمن مسخر لتأكيد التقاطعات الحاصلة بين تلك الشخصيات والنص.⁹ وقد سلك ابن حزم في تقديم شخصياته التاريخية مسلكين هما:¹⁰

(1) الإفصاح عن اسم الشخصية عندما لا يكون هناك ضرر في تسميتها لاشتهار سابق بذلك الحدث، أو بموافقة منها على أن تذكر في كتابه، وهذه الموافقة تتفاوت درجاتها من الرضا إلى قلة الإنكار.

(2) الكفاية عن الأسماء وذلك يرجع إلى أسباب منها:

- أن تكون الشخصية امرأة (عورة) لا يجوز كشفها. خاصة المرأة الحرة النسيبة، أو ذات الصلة برؤساء العصر.
- المحافظة على صديق ودود.
- المحافظة على أجلاء الرجال والعلماء والفقهاء.
- أن تكون الشخصية من العامة، لا فائدة من ذكرها.

ب) شخصيات دينية:

تتكوّن هذه الشخصية نتيجة لظروف عدّة، غير أنّ علاقتها بتلك الظروف ليست علاقة تأثر من جانب الشخصية فقط، بل هي علاقة تأثير وتأثر بين الشخصية والواقع.¹¹ وقد كان في تأكيد ابن حزم على أنّ الحب "ليس بمنكر في الديانة، ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل" ¹² دليل على أنّه استقى نفرا من شخصياته من المرجعية الدينية، يقول: "وقد أحب من الخلفاء المهديين ¹³ والأئمة الراشدين كثير، منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية الدعاء، والحكيم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والطرف معلوم، والحكم المنتصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله (رضي الله عنه وعن جميعهم) وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها... ومثل هذا كثير، ولا أنّ حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنا هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل".¹⁴ فهو في ختام قوله يؤكد على المكانة الدينية لهؤلاء الرجال، وحقوقهم على سائر المسلمين، والتي تقتضي كتمان هذه القصص والتحفظ على تلك الأخبار، لما تتسم به من خصوصية وما قد تثيره من فتن وشكوك.

ولا يفوتنا في هذه النقطة التوقف عند شخصية سيد الخلق والأنام الرسول محمد (صلي الله عليه وسلّم)، حيث يذكره ابن حزم في أكثر من موضع، كقوله في باب الواشي: "وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، أنّه سئل هل يكون المؤمن بخيلا؟ فقال: نعم، قيل: فهل يكون المؤمن جبانا؟ فقال: نعم، قيل: فهل يكون المؤمن كذابا؟ قال: لا".¹⁵

ج) شخصيات سياسية

إنّ قصص طوق الحمامة وأخباره تدور في معظمها حول شخصيات سياسية أو متصلة بالسياسة، تزداد هذه العناية كلما ابتعد ابن حزم عن طبقة الخلفاء (المدرجة ضمن الشخصيات الدينية) إلى كبار الرجال والحكام ودعائم الدولة.¹⁶ ومن تلك الشخصيات ما جاء في قوله في باب من أحب في النوم: "وذلك أتت دخلت يوما على أبي السري عمار بن زياد صاحبنا مولي المؤيد، فوجدته مفكرا مهتما، فسألته عمّا به، فتمنع ساعة، ثم قال: لي أعجوبة ما سُمعت قط، قلت:

ومما ذلك ؟ قال: رأيت في نومي الليلة جارية، فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها، وهمت بها، وإني لفي أصعب حال من حياها. ولقد بقي أياما كثيرة تزيد على الشهر مغموما لا يهنئه شيء وجدا، إلى أن عدلته وقلت له: من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد، هل تعلم من هي ؟ قال: لا والله ، قلت: إنك لقليل الرأي مصاب البصيرة، تحب من لم تره قط، ولا خلق ولا هو في الدنيا، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر. فما زلت به حتى سلا وما كاد¹⁷.

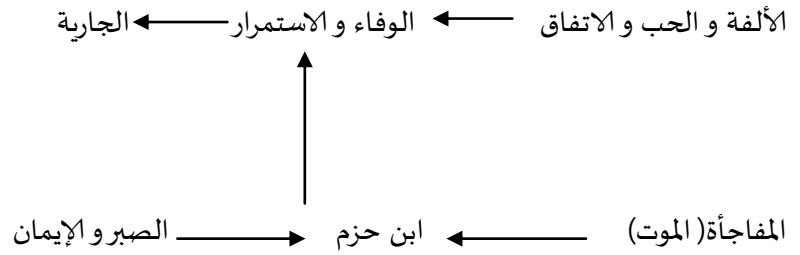
ومن الشخصيات السياسية الكثيرة التي سرد لنا عنها ابن حزم في كتابه السياسي الأموي زياد بن أبي سفيان، الذي ذكره ابن حزم في باب الوصل في قوله: "وروي عن زياد بن أبي سفيان - رحمه الله - أنه قال لجلسائه: من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا: أمير المؤمنين، فقال: وأين ما يلقي من قريش؟ قيل فأنت، قال: أين ما يلقي من الخوارج والثغور؟ قيل فمن أيها الأمير. قال: رجل مسلم له زوجة مسلمة، لهما كفاف من العيش، قد رضيت به ورضي بها. لا يعرفنا ولا نعرفه"¹⁸. وتبقى الشخصيات السياسية شاغلة الحيز الأكبر من الشخصيات التي ذكرها ابن حزم.

(2) المفارقات بين الشخصية والعامل والممثل:

تجاوز غريماس الوضع الداخلي المحدود للشخصية (أي بوصفها وحدة معجمية) إلى الوضع الخارجي، أي من المستوى التركيبي إلى المستوى الدلالي، فأسس ضمن مشروعه الضخم لدلائلية الشخصية، حيث عبّر عنها في نموذجها العاملي *Modèle actantiel* بمصطلحين هما العامل *L'actant* والممثل *L'acteur*¹⁹. فالنموذج العاملي يرتكز أساسا على شخصيات نموذجية تسمى كل منها عاملا، تنتظم هذه الشخصيات في ثلاث علاقات²⁰ (هي علاقات الرغبة والتواصل والصراع)²¹، والعامل في عرف غريماس هو "من أنواع الوحدات التركيبية، ذو خصوصية شكلية، ويمكن للعامل أن يكون من الكائنات البشرية، أو حتى من الأشياء البسيطة، التي قد تكون لها فاعلية تؤهلها للمشاركة في الموضوع"²². ومن هنا يتضح لنا أن العامل أشمل وأعم من الشخصية، فهو يتجاوز الذات البشرية إلى كائنات أخرى، فقد يكون العامل حيوانا أو حالة شعورية أو مجموعة من الظروف، وربما هذا ما دفع غريماس في نظريته السيميائية السردية إلى القول بالعامل بدلا من الشخصية. أمّا الممثل فهو "وحدة تركيبية اسمية يتضمنها الخطاب، ويمكن أن يكون الممثل فرديا أو جماعيا أو تصويريا"²³. فالممثل هو الاسم أو الصفة المجسدة للعامل في الخطاب. وقد أشرنا في المدخل إلى أن ممثلا واحدا قد يقوم بعدة أدوار عاملية (مرسل، معارض، فاعل...)، والعكس صحيح، حيث إنّ مجموعة من الممثلين قادرون على القيام بالدور العاملي نفسه، وهذا متضح بشكل جلي من قول غريماس المذكور آنفا.

ويمكن تقسيم النماذج العاملية في قصص طوق الحمامة إلى نوعين منها ما يشارك فيها ابن حزم بصفته عاملا مجسدا في الفاعل أو عوامل أخرى غيره، ومنها ما لا يشارك فيه بمعنى أن ابن حزم كان يسرد لنا أحداثا كان هو بطلا فيها أو شارك مع أبطالها، أو يسرد أحداثا لم يشارك فيها. وللتوضيح أكثر نقترح نصوصا في تستوعب كلتا الحالتين:

- 1- مشاركة ابن حزم باعتباره عاملا: مثلما هو موضح في النص الآتي في باب الموت: "وعني أخبرك أي أحد من ذوي هذه الفادحة وتعلجت له هذه المصيبة، وذلك أنني كنت أشد الناس كلفا وأعظمهم حبا بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها ناعم. وكانت أمنية المتمني وغاية الحسن خلقا وخلقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار واخترمتها الليالي ومرّ النهار وصارت ثالثة التراب والأحجار"²⁴ فابن حزم هنا يمثل دور الفاعل الذي يرغب في المحبوبة المتمثلة في الجارية، حيث يمكن لقصتهما أن تتلخص في النموذج العاملي الآتي:



وتتحدد العلاقات الثلاث بين العوامل في ما يلي :

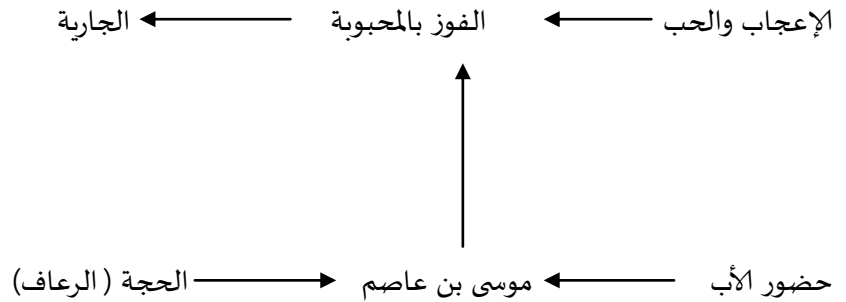
- علاقة التواصل: يجمع بين المرسل (وهو حالة شعورية تتمثل في الألفة والحب من طرف ابن حزم)، موجه إلى مرسل إليه (وهو الجارية) كونه طرفاً موجّهاً إليه.

- علاقة الرغبة: وتجمع بين الفاعل (ابن حزم) وموضوع القيمة (الوفاء للجارية رغم موتها)، وفي هذا الموضع ننبه إلى أنّ فاعل الرغبة هو نفسه فاعل الإنجاز، فابن حزم أحب الجارية وعمل على البقاء وفيها لها فكان الوفاء موجوداً في حياتها وموتها وعليه سيكون البرنامج السردي كالآتي:

ب س : ف ت (ف) = { (ف ٨ م) ← (ف ٨ م) }²⁵

- علاقة الصراع: وتتمثل في الصراع القائم بين المساعد (الصبر) والمعارض (الموت).

2- غياب ابن حزم ضمن العوامل وعدم مشاركته في الأحداث: مثلما هو موضح في النص الآتي: "وحدثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: كنت بين يدي أبي الفتح والذي رحمه الله، وقد أمرني بكتاب أكتبه إذا لمحت عيني جارية كنت أكلف بها، فلم أملك نفسي ورميت الكتاب عن يدي وبادرت نحوها وبهت أبي، وظن أنه عرض لي عارض، ثم راجعني عقلي فمسحت وجهي، ثم عدت واعتذرت بأنه غلبني الرعاف"²⁶ بحيث يمكن لهذا الحدث أن يحتمل فاعلاً هو موسى بن عاصم، وليس ابن حزم، ويكون نموذجاً العاملي كالآتي:



حيث تتضح العلاقات الثلاث على النحو الآتي:

- علاقة التواصل: يجمع بين المرسل (وهو حالة شعورية تتمثل في الإعجاب والحب من طرف موسى بن عاصم)، موجه إلى مرسل إليه (وهو الجارية) كونه طرفاً موجّهاً إليه.

- علاقة الرغبة: وتجمع بين الفاعل (موسى بن عاصم) وموضوع القيمة (البلوغ والظفر بالمحبة)، وفي هذا الموضع ننبه إلى أنّ فاعل الرغبة هو نفسه فاعل الإنجاز، فموسى هو الذي أراد المحبة وحاول الوصول إليها، لكنه لم يبلغها وعليه سيكون البرنامج السردي سلبياً كالآتي:

ب س : ف ت (ف) = { (ف ٧ م) ← (ف ٧ م) }²⁷

- علاقة الصراع: وتتمثل في الصراع القائم بين المساعد (الحجة التي أراد بها موسى الالتقاء عن كتابة الكتابة) (اي الرعاف) (المعارض (حضور الأب الذي كان يراقب ما يحدث).

(3) شخصية المرأة في قصص طوق الحمامة:

حظيت المرأة العربية باهتمام الكثير من الكُتّاب والأدباء على اختلاف اتجاهاتهم وتعدّد اهتماماتهم، وشغلت حيزاً بارزاً في نتاجهم الأدبي، سواء أكان شعراً أم نثراً. وكانت الوتر الحساس الذي يتأثر بحركة الواقع ويؤثر فيها.²⁸ وقد احتلت المرأة الحيز الأكبر من شخصيات طوق الحمامة.

والملاحظ أنّ الطرف النسائي في قصص الحب كان في الغالب من الجوّاري، ما يلفت النظر إلى التأثير الكبير للحب الذي أراد ابن حزم تأكيده، والذي يؤكد تجاوز الفجوة الطبقيّة بين المحبين والمحبوّبات، كما يشير إلى أنّ قصص عليّة القوم كانت غاصة بالجوّاري، ولذلك كانت فضاء مهما لقصص الحب.²⁹ وللتوضيح أكثر سنقوم بتحليل الشخصيات بما فيها المرأة من خلال قصص إحدى الجوّاري التي ورد ذكرها في باب الموت من خلال القصة التي رويها ابن حزم بقوله: "وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء، فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها، فجزعت لذلك جزعا شديدا، وما فارقتها النحول والأسف، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت، وكان ذلك سبب موتها، ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة، ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها، أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولا ورقة، فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان؟ فتنفست الصعداء وقالت: والله لأنسيته أبداً، وإن كان جفاني بلا سبب. وما عاشت عد هذا القول إلا يسيراً".³⁰ واعتمدا على الدوائر السبع التي اقترحها بروب، والتي عدّها خلاصة جمع الوظائف وعلاقات الشخصيات وتمركزها في سلسلة الأحداث،³¹ يمكن تصنيف شخصيات هذه القصة إلى:

(1) المعتدي: الرئيس المالك للجارية باعتبار أنّه اعتدى على حياها له بتخليه عنها دونما سبب محدد ثم بيعه لها.
(2) الواهب: ليس هناك واهب محدد في هذه القصة، كونها ليست حكاية خرافية تقتضي واهب يمد البطل بأداة سحرية، وإن سلمنا بوجوده سيكون الله سبحانه وتعالى الذي أمد الجارية العاشقة ببعض الصبر، وهذا يفهم من قوله "فتنفست الصعداء".

(3) المساعد: وهي المرأة التي حكّت القصة لان حزم، والتي حاولت التخفيف عن الجارية.

(4) الموضوع المفقود: الحب الذي يجمع بين الجارية ومالكها الذي باعها.

(5) المرسل (الباعث) الحزن على فراق المحبوب والشوق إليه.

(6) البطل: الجارية العاشقة.

(7) البطل المزيف: ليس هناك بطل مزيف محدد، وإن افترضنا وجوده، فسيكون فسه المعتدي أي الرئيس الذي أحبته الجارية.

هوامش البحث:

- 1- حكيمة بوقرومة: منطق السرد في سورة الكهف، ص 107.
- 2- جريدة حماش: بناء الشخصية في حكاية عبدو والجمام والجل لمصطفى فاسي، منشورات الأوراس، الجزائر، سنة 2007، ص 57.
- 3- للتذكير فإنّ نظريات ومناهج النقد الحديث والمعاصر تنقسم إلى اتجاهين كبيرين: اتجاه سياقي (يضم المنهج التاريخي والنفسي والاجتماعي والتأثري ...) واتجاه نسقي (ويضم المنهج الشكلانية والبنوية والأسلوبية والسيمائية والتأويلية والتفكيكية وجمالية التلقي...)، فالاتجاه الأول يربط في العملية النقدية النص بسياقات مختلفة حسب طبيعة المنهج، وأما الاتجاه الثاني فيعتمد المقاربة النقدية التي تقوم على نسق النص في حد ذاته (وهو الاتجاه المعتمد في بحثنا).
- 4- وردة معلم: الشخصية في السيميائيات السردية، محاضرات الملتقى الوطني الرابع حول السيميائية والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر – بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب العربي، 28 – 29 نوفمبر 2006، ص 311.
- 5- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 113.
- 6- المرجع نفسه، ص 114.
- 7- عمر عبد الواحد: بنية الخبر، دراسة في طوق الحمامة، ص 71.
- 8- إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، ص 157.
- 9- فاطمة سليمان: الشخصية التاريخية في الرواية الجزائرية وهوية الانتماء (مخطوط)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث والمعاصر بإشراف أ.د سعيدي محمد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان، 2011/2012، ص 19.
- 10- ينظر عمر عرو: بنية الخبر، دراسة في طوق الحمامة، ص 72.
- 11- سعيد بوسقطة: ملامح الشخصية الدينية في أعمال الطاهر وطار، مجلة التبيين (ملف خاص بالطاهر وطار، الجمعية الثقافية الجاحظية، الجزائر، ع35، 2010، ص 78.
- 12- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، ص 60.
- 13- وفي طبقات أخرى للكتاب نجدها المهديين.
- 14- المصدر السابق، ص 60.
- 15- المصدر نفسه، ص 150.
- 16- ينظر عمر عبد الواحد: بنية الخبر، دراسة في طوق الحمامة، ص 74.
- 17- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، ص 85.
- 18- المصدر السابق، ص 165.
- 19- وردة معلم: الشخصية في السيميائيات السردية، ص 316.
- 20- إبراهيم صحراوي: تحليل الخطاب الأدبي، ص 145.
- 21- تم شرح هذه العلاقات في مدخل البحث.
- 22- Algirdas Julien Greimas et Joseph Courtès: Sémiotique, Dictionnaire raisonne de la théorie du Langage, Hachette Livre, Paris, 1993, p 3.
- 23- Ibid, p6.
- 24- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، ص 212.

- 25- تفسر الرموز في معادلة البرنامج السردى كآلاتي ب س برنامج سردي ف ت فعل التحويل (وهو متمثل في خروج الكتاب إلى الوجود بعد عدمه)، ف فاعل (ابن حزم) م موضوع القيمة (كتابة رسالة في الحب)، √ (الانفصال عدم وجود الكتاب) ٨ الاتصال (ظهور الكتاب إلى الوجود) ← الانتقال (مراحل جمع القصص وكتابة الرسالة).
- 26- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، ص 122.
- 27- تفسر الرموز في معادلة البرنامج السردى كآلاتي ب س برنامج سردي ف ت فعل التحويل (وهو متمثل في خروج الكتاب إلى الوجود بعد عدمه)، ف فاعل (ابن حزم) م موضوع القيمة (كتابة رسالة في الحب)، √ (الانفصال عدم وجود الكتاب) ٨ الاتصال (ظهور الكتاب إلى الوجود) ← الانتقال (مراحل جمع القصص وكتابة الرسالة).
- 28- حسان رشاد الشامي: المرأة في الرواية الفلسطينية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص 7.
- 29- عمر عبد الواحد: بنية الخبر، دراسة في طوق الحمامة، ص 74.
- 30- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة، ص 259.
- 31- محمد سعيدي الأدب الشعبي بين النظرية التطبيق، ص 79.